# أدب الطّفل في ضوء مناهج اللّغة العربية(واقع وآفاق)

د: باي عبد القادر
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة سيدي بلعباس الجزائر

*Did you know educational curricula in Algeria in recent years, among other reforms, because the future of the country is, and how developed and optimized, and make them consistent with the age requirements and interests of future generations, given that education is a vital artery of a nation, the backbone of its unity and composed, the learner is a positive partner to achieve these goals through the contents contained in this curriculum*

عرفت المناهج التّربوية في الجزائر خلال السنوات الأخيرة جملة من الإصلاحات ، ذلك لأنّ مستقبل البلاد مرتبط بها،وبمدى تطويرها وتجويدها، وجعلها متلائمة مع متطلّبات العصر واهتمامات الأجيال، وبما أن التّعليم هو الشريان الحياتي للأمّة، وعَصَبُ وَحدَتها وأُلفتها، والمتعلّم هو الشّريك الإيجابي لتحقيق هذه الغايات من خلال المحتويات المتضمنة في هذه المناهج،فقد أضحى من الضروري بمكان، أن تحظى هذه المناهج وعلى رأسها منهاج اللّغة العربية بالعناية والاهتمام، على اعتبار أنّها الأداة الفعلية للتّعلّم، والعمود الفقري لاكتساب المعرفة،والوعاء الّذي يتشرّب منه الأطفال المواقف والاتجاهات والقيم، وبما أنّ أدب الطّفل يمثّل ميلا حقيقيا للأطفال، وحاجة ملحة لتعلّمهم، فإنّه يُعَدُّ إستراتيجية ناجحة إذا ما وظّف فيما يقدّم للتّلاميذ من نصوص قرائية، وليس هذا فحسب، بل يزيد في استثارة دافعية المتعلّمين الّتي تعدّ أساس التّعلّم، وعلى الرّغم من عمليات التّعديل الّتي مسّت مناهج اللّغة العربية عبر كامل المستويات، وسعي مصمّميه إلى التّحسين، إلاّ أنّها ظلّت محدودة وضيّقة في

معناها، وذلك لتغليب أسلوب التّحدّث عن الطّفل عوض التّحدّث له ، وتفضيل الكتابة عنه بدل الكتابة له ، عن هذا الموضوع جاءت هذه الورقة لتتحدّث عن واقع أدب الطّفل في ضوء مناهج اللّغة العربية من حيث التّوظيف، وعن أفاق الارتقاء به ليكون في مستوى التّحدّيات الّتي تفرضها الأهمّية الرّاهنة لثقافة الأطفال تربويا، وطنيا، إبداعيا، جماليا، ونفسيا.

انطلاقا من القاعدة الذّهبية الّتي موضوعها:القراءة أساسها الفهم، ولكي يفهم التّلميذ ما يقرأ، يجب أن يقرأ ما يفهم، قلت: انطلاقا من هذه القاعدة الّتي ترسي معالم التّوجيه للكتابة للأطفال، فلا بأس أن أشير إلى بعض الأسس الّتي أرى أنّه من المفروض أن تتّبع أثناء الكتابة للأطفال، كونها عملية شاقّة ومضنية، وتتطلّب كفايات عالية وقدرات معتبرة من حيث الدّراية بعالم الطّفل الخفي، والإلمام الكبير بدوافعه المتعدّدة وحاجاته المتنوّعة ، إذ على هذا الأساس تتيسّر على الكاتب أساليب الكتابة ، وإمكانات الخوض في غمار أدب الطّفولة«فما أكثر الّذين يكتبون للطّفل في أيامنا هذه، وهم بذلك يستعجلون الزّمن كي يقبضوا من كتاباتهم بمجرّد الانتهاء من عملية الكتابة، غير آبهين بما سيؤول إليه مصير ذلك الطّفل بعد تلك الكتابة»[1]. وما علموا أنّ الإقبال على ما يكتبون مردّه إلى مدى توافق كتاباتهم مع ميول الطّفل ورغباته، و أنّ الكتابة عن الطّفل لا تعني بأيّ حال من الأحوال الكتابة للطّفل، لأنّ الكتابة عن الطّفل تعني تعامل الكاتب مع الكتابة انطلاقا من وعيه وتفكيره كراشد دون النّزول إلى مستوى تفكير الطّفل واهتماماته النّفسية، الاجتماعية، اللّغوية التّربوية والعلمية، وتلك هي مرتكزات أدب الطّفل الّذي أقصد، فقد«يخطئ من يظن أنّ الطّفل مجرّد صفحة بيضاء يكتب عليها ما يشاء في الوقت الّذي يشاء بالطّريقة الّتي يشاء ، ويخطئ أيضا من يظن أنّ الطّفل مجرّد شريط نسجّل عليه توافهنا وروائعنا»[2]. ولعلّ النصوص المبثوثة في المقرّرات المدرسية والمقتبسة من قصص وروايات طويلة

لأدباء كرّسوا حياتهم في الكتابة للكبار ، أو إن شئت قل كانوا يترفّعون عن الكتابة للصّغار ، على اعتبار أنّه منقصة لمستواهم وتقليل من شأنهم، هو ما أضعف روح الإقبال لدى النّاشئة على القراءة، ودفع بهم إلى العزوف عنها ، والنّفور منها. ولقد أثبتت التّجارب التّربوية على«أنّ استناد المناهج إلى ثقافة الأطفال في اعتباراتها التّربوية والثّقافية والفنّية ، من شأنها أن تيسّر المنهاج ، وتضمن للتنشئة الاجتماعية سيرورة ذاتية تجعل الطّفل مشاركا وليس متلقيا يحشى بالمعلومات اللاّزمة ، وغير اللاّزمة»[3]. فإذا كانت القراءة هي الوسيلة المثلى لإثراء خبرات الطّفل وتنويعها وتوسيع دائرتها، لأنّها تنقله من محيطه الضّيق إلى آفاق أرحب، وتعمّق فهمه للنّاس والأشياء والظّواهر، فإذا كان الأمر كذلك، فقد وجب حينئذ – والخطاب موجّه إلى بناة المناهج – أن يسعوا سعيا حثيثا، ويبذلوا جهدا جهيدا لانتقاء النّصوص وتخيّرها، انتقاء يتّفق مع ميول الأطفال ورغباتهم، وتخيّرا يسهم في البناء الإيجابي لشخصياتهم، ويحقّق الأهداف التّربوية النّبيلة، ذلك لأنّ«القراءة أكثر ضرورة للطّفل لأنّه يستقي خبراته من خلال تفاعله مع ما يقرأ»[4]. فتحقيق الذّات والبناء السّوي لشخصية الطّفل روحيا،جماليا، وإنسانيا هو ما ينبغي أن يراعى أثناء بناء هذه النّصوص«فالمبدع الحقيقي هو ذلك الفنّان الّذي يفهم الطّفل، ويقدّم له أروع الهدايا»[5].

إنّ كثرة تعامل الأطفال مع النّصوص الرّاقية والاتّصال بها، بما تحمله في ثناياها من معلومات علمية وثقافية وصور للبيئات الإنسانية المختلفة،كافية لإثراء رصيدهم اللّغوي والمعرفي، وإشباع خيالهم العلمي والأدبي،كما تساعدهم على إرهاف إحساسهم وترقية الذّوق لديهم وصقل ملكاتهم، وبخاصّة أولئك الأطفال الّذين مازالت ملكاتهم غضّة طرية«فالقراءة تعطي الطّفل فرصا كثيرة للاختيار والمقارنة، لأنّ ميولنا ومقاييسنا في التّقدير وأذواقنا غالبا ما تكون وليدة تجاربنا»[6].وبذلك تتنمّى شخصيات الأطفال ويتربّى وجدانهم خلافا«للطّفل العازف عن القراءة، بحيث يؤدّي

هذا العزوف إلى جهل ما يدور في العالم من حوله فتنطبع شخصيته بالانغلاق والخمول،ممّا يجعله غير قادر على تحليل ما يسمع أو يتداول من معلومات وأفكار»[7].لأنّ الغاية من ذلك هو الوصول إلى أدب يرقى إلى تطلّعات الأطفال وطموحاتهم ، ويُراعى فيه الأبعاد التّربوية النّبيلة، الّتي من شأنها أن تسهم في بناء شخصية الطّفل المستقبلية،كالبعد الدّيني ، الوطني، المعرفي، الثّقافي، العلمي، الاقتصادي، الرّوحي، الأخلاقي، الصّحي، الرّياضي والتّربوي. لأنّ«الطّفل القارئ يضيف إلى حصيلته الثّقافية في كلّ يوم شيئا جديدا ممّا تعرضه المطابع ليدعمّ فكره بأفكار غيره، حتّى يتسنّى له الإنتاج الخصب»[8] غير أنّ ما هو حاصل حسب تتبّع النّصوص الّتي تضمّنتها الكتب المدرسية في المرحلة الابتدائية،نجدها قد أغفلت جملة من المعايير اللازمة أثناء الكتابة للأطفال،إذ نجدها عبارة عن نصوص مقتبسة من قصص وروايات طويلة موجّهة للكبار، حتّى أنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ،إذ لو التفتنا التفاتة لطيفة إلى أسلوب الاقتباس والتّصرّف، لوجدنا أنّها لا تخضع إلى الأسس الّتي ينبغي أن تبنى عليها كطبيعة الألفاظ والمعاني من حيث الوضوح والبساطة، وكذا السّبك، الحبكة، التّناسق التّشويق، الإثارة، الوحدة الموضوعية، وعدم المباعدة بين ركني الجملة ، واستخدام الكلمات الّتي ترمز إلى المحسوسات والمراوحة بين الخبر والإنشاء وعدم الاستطراد، يقول حسين عبروس:« ولذا فعلى الكاتب أن يرسم للطّفل بخطّ يحمل دلالة المعنى وصّورة الكلمة الّتي تجعله في قمّة السّعادة، وذلك كلّما قرأ كتابا موجّها إليه، شعر بدفء القراءة وحرارة الكتابة، وهو يرى بين ثناياها هذا المقروء، سواء كان قصيدة أو قصّة أو مسرحية أو غيرها من حلقات السّلسلة، حتّى ينمو الطّفل سليما في بدنه، سليما في دينه، سليما في ذوقه»[9]. إنّ هذه السّمات الفنّية الواجب توافرها في أدب الطّفل، والمطلوب مراعاتها أثناء الكتابة له ،كفيلة بأن تستثيره وتدفعه إلى التّفاعل مع النّص، وتمكّنه من تحليله وإعادة تركيبه قصد

استخلاص ما تضمّنه من قيم قد أُودِعت فيه، فمتى توافرت هذه السّمات والعناصر، تمكّن الأطفال من التّفاعل معها إيجابيا، وامتلكوا المهارات العالية الّتي تجعل أساليب تناولها ميسّرة من حيث التّحليل والتّركيب واستخلاص القيم، يقول "محمد صالح سمك": «ولقد تبيّن من دراسات كثيرة أنّ من أسباب الضّعف القرائي لدى الطّلبة ضعف ميلهم إلى القراءة»[10].غير أنّ هذا الحال،أي ضَعف ميلهم إلى القراءة أساسه طبيعة هذه النّصوص الّتي في أغلبها لا تستجيب لتطلّعات أبنائنا الأطفال واهتماماتهم،بمعنى أنّها لا تستند إلى ثقافة الأطفال في خطابها، ولا ترقى في اتّصالها إلى بيئة الطّفل وثقافته الخاصّة، ولا تحمل في مضامينها خطابا مبعثه تقاليد الطّفل الثّقافية والاتّصالية ، وهذا لا يعني أن يعمد مؤلفو المقرّرات المدرسية إلى تبسيط النّصوص الأدبية المنشورة للراشدين، أو إجراء تعديل عليها، أو كما ذهب إلى ذلك النّاقد الرّوسي "بيلنيسكي" سنة 1842 حينما قال:«يمكن أن نقدّم للأطفال المضامين نفسها الّتي نقدّمها للراشدين ، غير أنّ عرضها فقط هو الّذي يتكيّف مع مستوى فهمهم»[11] إنّ هذا الإجراء – في نظري– ليس هو الخطاب الثّقافي الّذي يجب أن يوجّه للأطفال، كون هذه العملية لا تتعدّى معنى التّرجمة، إذ الجهد الوحيد المبذول فيها قائم على نقل النّص من لغة الكبار إلى لغة الصّغار،وهو ما يدفع إلى تعزيز أسلوب التّلقين ويحدّ من دافعية الأطفال أثناء تعاملهم مع النّص، ممّا يجعل منهم مستمعين بكمًا ، أضف إلى أنّه ينطلق من تجارب الكبار لا الصّغار، إذ بقدر ما تكون عليه طبيعة النّصوص تكون درجة فاعليتهم، وبقدر فاعليتهم تتنمّى قدراتهم وتتشكّل مواهبهم في امتلاك رؤيتهم المعرفية لمحيطهم والعالم ككلّ، وعليه فإنّ أدب الأطفال الّذي أقصد، هو ذلك الأدب الذي يعترف بحقّ الطّفل بالخيال ، وحقّ الطّفل، بالتّذوّق، وحقّ الطّفل بالأدب، وحقّ الطّفل بالفنّ، فليس من الإنصاف ألاّ يشمّر الأدباء عن سواعدهم ويكشفوا عن مواهبهم ، قصد إنتاج أدب خاصّ بالطّفل

يتحسّسه ويتذوقه ويشعر بالمتعة أثناء قراءته ، وهنا تحضرني القاعدة الذّهبية الّتي كثيرا ما اعتمد عليها الأوكراني "سوخو ميلنسكي" أثناء تأليفه لجملة من الكتب تضمّنت تجاربه في العمل التّربوي مع الأطفال، أبرزها كتابه المشهور (للأطفال قلبي)، هذه القاعدة موضوعها« أنّ دراسة العالم الرّوحي الدّاخلي للأطفال ولاسيما تفكيرهم تعدو واحدة من أخطر مهام المعلّم »[12]. وهذا يعني أنّ الكتابة للأطفال تتطلّب من الكاتب أن يكون ذا ثقافة واسعة بعالم الطّفل، ودراية حقيقية، وإلمام كبير بعلم نفس الطّفل، قصد التّمكّن من إشباع رغبات الطّفل العقلية والنّفسية والاجتماعية، فعلى هذا الأساس تميّز أدب الطّفل عن الأدب الّذي يتحدّث عن الطّفل ، فهو«يعدّ علاجا تّربويا لمشكلات النّطق والاضطرابات الحركية والانعزالية والاجتماعية والأنانية والكسل والخنوع وسواها، ويعدّ أيضا علاجا سلوكيا لأمراض النّفس والعقل كالرُهاب والحِصار والعُصاب والمخاوف المرضية والمعتقدات الخاطئة وغير ذلك»[13]. ومن هنا تتجلّى قيمة هذا النّوع من الأدب، إذ موضوعه لا يقتصر فيه على التّسلية وجلب المتعة للطّفل،بل الأمر يتجاوز ذلك بكثير،لأنّ الكتابة للأطفال لها فنياتها ومهاراتها وخصائصها ومواصفاتها المرتكزة على العلم بطرق إدراكهم وأساليب تفكيرهم ، وحاجاتهم ودوافعهم وميولهم وكذا الوعي بمعجمهم اللّغوي ومستوى تحصيلهم وهو ما ذهب إليه جون ديوي في قوله«وعليه لا يجوز أن يحدّد الكبار أو الخبراء ما يرونه مناسبا للطّفل، وإنّما يجب إجراء الدّراسات لمعرفة ما يودّ الطّفل دراسته، على اعتبار أنّ دافعية المتعلم ذاته ورغبته في التّعلّم هي الّتي تحدّد فاعليته ونشاطه في أيّ موقف تعلّمي»[14].لذا فإنّ التّفكير في الكتابة للأطفال بخطاب موجّه لهم، لا يعني النّزول إلى مستوى البساطة أو الضحالة أو الاعتماد على أسلوب الوعظ والإرشاد ، أو تغليب المنظور التّربوي التّعليمي وحده على ثقافة الأطفال، أو التّعالي عليهم في إلقاء الخطاب بصوت حاد النّبرة يميل صاحبه فيه إلى المبالغة في السّرد والإنشاء ، فهذا لا

يغيّر من سلوك الأطفال شيئا، ولا يعدّل من قيمهم قيد أنملة، ولو حسنت نيّة الكاتب وصدقت غايته، فإنّ ذلك لا يغني من الغرض شيئا،« إذ لا بدّ أن يحسّ الصّغار أثناء قراءتهم أنّ هناك أحداثا تجري،وشخصيات تنمو فيتابعونها في لهفة فتستثيرهم في حماس، وبذلك تصبح القراءة متعة يبحثون عنها ولا يهربون منها»[15].

إنّ الوصول بأدب ناجح للأطفال مرهون بمدى معايشة الأطفال عبر مراحلهم العمرية المتلاحقة، قصد تفهّم خصوصية عالمهم، والتّعرّف على أنماط سلوكهم وطرق تفكيرهم، لأنّ مرحلة الطّفولة «تعدّ من أفضل المراحل العمرية وأخصبها لتنمية الميل إلى القراءة لدى الإنسان»[16].

إنّ كتاب القراءة المدرسي، بوصفه مرجع التلميذ الرّئيس وركيزته الأساس، والأداة الفعّالة في تحقيق الأهداف التّربوية ، والوعاء الّذي يحتوي المادّة العلمية الّتي على أساسها تتحقّق غايات المنهاج ومراميه، ضمن ما يحمله من خطاب نحَسَبُه موجّها للطّفل،كلّ الرّهانات عالقة عليه من أجل الارتقاء بأدب معبّر عن ثقافة الطّفل وشخصيته وهويته، حتّى يكون في مستوى الحدث، حدث الاستجابة لتطلّعات الأطفال وحاجاتهم، وكذا اهتماماتهم وميولهم، وعليه فإنّ على بناة المناهج أن ينهضوا نهضة جريئة، قصد الالتفات إلى أولئك الّذين برعت أقلامهم في الكتابة للأطفال، وسخّروا أنفسهم لأدب الأطفال، وأذابوا ماء أعينهم لإسعادهم، أمثال "عبد القادر الأخضر السّائحي" في كتابه: (أدب الطّفل الجزائري)،و"سليمان العيسى" الّذي لم يكفه ما برع به قلمه في الكتابة لهم،حتّى صرّح قائلا: «أطفالنا محرومون يعيشون كالنّبات البرّي على الجفاف والعطش، وشعراؤنا لم يترجّلوا يوما عن خيلهم الخشبية ليداعبوا طفلا بأنشودة،ويضعوا على ثغره أغنية حالمة، وأدبنا العربي يكاد يكون فارغا فراغا محزنا من أدب الطّفل،ولا سيما شعر الأطفال،ومن هذه القناعة بدأت أكتب للصّغار»[17]. ثمّ يضيف مقالا آخر في مقام آخر، من جملته«لقد شغلوا أهمّ حيّز في

حياتي وفي نتاجي، وما زلت غارقا في هذا الهمّ الكبير، همّ الطفولة، حتّى السّاعة»[18].

كما أنّ هناك جهودا أخرى قام بها عمالقة آخرون لا يقلّ وزنهم عمّن ذكرنا، بحيث قدّموا أعمالا جليلة يكاد يفخر بها طفل الوطن العربي، تحتاج فقط التّثمين، والتضمين في مناهج التّعليم، ومِن هؤلاء:"زكريا تامر" من سوريا، "عبد التّواب يوسف" من مصر،"كافية رمضان" من الكويت،"أحمد عبد السلام ألبقالي"من المغرب، و"محيي الدين خريف"من تونس...، نعم لقد سخّر هؤلاء أنفسهم لخدمة أدب الطّفل، ووهبوا أعمارهم وأفكارهم لرسم البسمة على شفتي الطّفل، فمن غير المعقول أن تظلّ هذه الأعمال الجليلة والجهود العظيمة حبيسة الأدراج والرّفوف، دون أن يتبنّاها بناة المناهج وتتضمّنها المقرّرات المدرسية.

## المراجـــع


1 . جون ديوي، الخبرة والتجربة، ترجمة : محمد رفعت رمضان ونجيب إسكندر، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة.

2 . حسان محمد حسان، (مقترحات لتنمية حب القراءة عند الأطفال). مجلة التّربية، العدد100، الكويت، مارس1992

3 . حسن شحاتة، قراءات الأطفال، الدار المصرية اللبنانية، ط3 ، القاهرة، 1996.

4 . حسن شحاتة، أدب الطفل العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط3 ، القاهرة، 1994.

5 . حسين عبروس، أدب الطّفل وفن الكتابة، دار الإخوة مدني، الجزائر، 2003.

6 . سليمان العيسى، (تجربتي في الكتابة للأطفال) .مجلة التّربية، العدد107، الكويت، ديسمبر1993.

8 . عبدالله أبو هيف،(الأهمية الراهنة لثقافة الأطفال).مجلة التّربية ، العدد107، الكويت، ديسمبر1993.

9 . محمد صالح سمك، فن التدريس للتربية اللغوية، دار الفكر العربي، ط ج، القاهرة، 1998

10 . محمد فضيلي، شكاي بلحول، مكتبة المدرسةالابتدائية بين الواقع والطموح، رسالة نهاية التكوين الأولي لمفتشي التربية والتعليم الأساسي لغة عربية الطورالأول والثاني،غير منشورة، المركزالوطني لتكوين إطارات التربية،1999.

11 . هدى قناوي، الطّفل وأدب الطّفل، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1994.


[1] حسين عبروس، أدب الطّفل وفن الكتابة، دار الإخوة مدني، الجزائر، 2003، ص.8 .

[2] نفس المرجع، ص.27 .

[3] عبدالله أبو هيف،(الأهمية الراهنة لثقافة الأطفال).مجلة التّربية ، العدد107، الكويت، ديسمبر1993، ص. 211 .

[4] هدى قناوي،الطّفل وأدب الطّفل، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1994،ص . 11 .

[5] المرجع السّابق، ص.7 .

[6] حسن شحاتة، قراءات الأطفال، الدار المصرية اللبنانية، ط3 ، القاهرة، 1996 ،ص.9 .

[7] محمد فضيلي، شكاي بلحول، مكتبة المدرسةالابتدائية بين الواقع والطموح، رسالة نهاية التكوين الأولي لمفتشي التربية والتعليم الأساسي لغة عربية الطورالأول والثاني،غير منشورة، المركزالوطني لتكوين إطارات التربية،1999 ،ص.12 .

[8] حسن شحاتة، مرجع سابق، ص . 11 .

[9] حسين عبروس، مرجع سابق، ص . 9 .

[10] محمد صالح سمك، فن التدريس للتربية اللغوية، دار الفكر العربي، ط ج، القاهرة، 1998، ص. 209 .

[11] عبدالله أبو هيف، مرجع سابق، ص _ ص. 208 .

[12] عبدالله أبو هيف، مرجع سابق، ص. 212 .

[13] عبدالله أبو هيف، مرجع سابق، ص.217 .

[14] جون ديوي، الخبرة والتجربة، ترجمة : محمد رفعت رمضان ونجيب إسكندر، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة ، ص.38 .

[15] حسان محمد حسان، (مقترحات لتنمية حب القراءة عند الأطفال). مجلة التّربية، العدد100، الكويت، مارس1992، ص. 153 .

[16] حسن شحاتة، أدب الطفل العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط3 ، القاهرة، 1994،ص.33 .

[17] حسين عبروس، مرجع سابق، ص . 25 .

[18] سليمان العيسى، (تجربتي في الكتابة للأطفال) .مجلة التّربية، العدد107، الكويت، ديسمبر1993، ص.162.